الحجاب واختبار العلمانية

الدكتور محمد شقير

إذا كانت العلمانية بشكل أساس، موقفاً من العلاقة بين الدين والدولة، ولم تكن موقفاً من الدين نفسه ولا إلحاداً، فهذا يعني أن ما ننتظره من العلمانية هو فقط إقصاء الدين عن التأثير في هوية الدولة ومرتكزاتها ووظائفها، بل ولعله أيضاً في ساحة الفعل السياسي عامة.

أما أن تبادر العلمانية إلى أخذ موقف من جملة من الأمور التي ترتبط بدائرة الحرية الشخصية والحرية الدينية وحرية التعبير عن المعتقد، فهذا يعني أن العلمانية قد خرجت عن حدودها التي رسمت لها، ولم تعد موقفاً من العلاقة بين الدين والدولة، بل أصبحت موقفاً من الدين نفسه، أو من دين بعينه، وهو يعني أن العلمانية قد أصبحت أيديولوجية كغيرها من الأيديولوجيات التي تمارس القهر والمنع والفرض، بطريقة تتجاوز فيها مفاهيم الحرية وحقوق الإنسان وكل المفاهيم والأفكار التي اتحفتنا بها طيلة عقود من الزمن، وعمل منظرو العلمانية على الترويج لها بهمة منقطعة النظير.

تستطيع العلمانية أن تقول إني أريد أن أمنع الحجاب أو لعله بعد مدة، الصلاة في المساجد أو مظاهر الاحتفال بعيد الفطر والأضحى... أو غير ذلك مما يدخل في دائرة الحريات الشخصية والدينية، لكنها بذلك تكون قد قضت على تراثها الذي سطرته خلال عقود من الزمن وقد تخلفت عن أهم مبادئها، وقد انقلبت على نفسها، حيث أنها في بعض مبررات نشوئها كانت موقفاً من الاستبداد والقمع الذي مارسته الكنيسة باسم الدين، ولذلك دعت إلى مفاهيم الحرية وحقوق الإنسان، لكن ما نراه الآن أن المؤسسة العلمانية نفسها وبعد ان استحكم سلطانها وضربت بجرانها فقد أخذت بنفسها تمارس القمع وكبت الحريات باسم العلمانية ومبادئها، فلا فرق إذن بينها وبين غيرها، حيث كانت تقول إن سلطة الكنيسة مارست القمع باسم الدين، وهاهي الدولة العلمانية تمارس القمع باسم المبادئ العلمانية، ولذا لم يعد مقبولاً من الآن فصاعداً، أن تطل علينا العلمانية مبشرة بالمفاهيم التي ترتكز على إنسانية الإنسان، وأصالته، وأصالة حقوقه وحريته.

إن العلمانية بفعلتها هذه قد نعت نفسها، وانقلبت على عقبيها، وحفرت قبرها بيدها، لأن ما يقال لنا إن العلمانية هي هذه، وأن ما نفعله هو باسم العلمانية، وينطلق من مبادئها، وينسجم مع روحها؛ نعم إن قيل لنا بأن ما يفعلونه من قمع وكبت ليس باسم العلمانية ندرك عندها أنهم قد خلعوا

ثوب العلمانية ووجدوا أنها فكرة باطلة، او لا تنسجم مع مصالحهم أو لربما قد تجاوزها الزمان وعفى عليها الدهر.

إن ما حصل كان اختبارا قاسياً للعلمانية، أنه هل يمكن القبول بالآخر وحريته في التعبير عن نفسه وقناعته ومعتقده، مهما كانت النتائج، أم أن صدر العلمانية سوف يضيق بالآخر، إذا ما وجدت أنه يعبر عما لا تعتقد به، ويتمسك بما لا ينسجم مع فكرها، ولذلك سوف تؤول القاعدة إلى التالي: نحن مع حرية التعبير إذا كان التعبير ينسجم مع فكرنا وإلا فلسنا مع حرية التعبير، نحن مع حرية المعتقد إذا كان يتماهى مع قناعاتنا، وإلا فلسنا مع تلك الحرية، أي نحن مع الحرية إذا كانت تؤدي إلى مصالحنا، وتنسجم مع قناعاتنا وأهدافنا، وإلا لسنا مع الحرية، ولا مع حقوق الإنسان، وهذا يعني ببساطة أن الآصالة في العلمانية ليست لحرية الإنسان وحقوقه، وإنما هي للإيديولوجية، بغض النظر عن مكوناتها وتسمياتها علمانية كانت أم غيرها.

إن ما يحصل الآن على الساحة الاجتماعية والسياسية لهو فضيحة، تكشف ورقة التوت عن كتير من الأفكار البراقة التي لطالما تباهى بها الغرب وأرجعت صداها حناجر في عالمنا العربي والإسلامي، فأميركا تريد أن تعطي دروس الديمقراطية لمن ما زالوا بسبب تخلفهم يجهلون عظمتها، لكنها عندما ترى أن الحرية لا تنسجم مع قناعاتها ومصالحها والهوية الثقافية لمجتمعها فليست مع الحرية، أي أن الأصالة هي للمصالح وليست للأفكار والمبادئ التي نادت بها.

إذا أرادت فرنسا أن تكون وفية لعلمانيتها، ولقضية حقوق الإنسان، فعليها أن تفسح المجال أما حرية التعبير عن الرأي والمعتقد حتى لو أدت إلى بروز الإسلام كحالة اجتماعية، طالما أن هذا الأمر يجري بطرق ديمقراطية، وبشكل ينسجم مع فلسفة الحرية، كما تذهب إليها العلمانية، أما أن يقال بأني أفهم الحجاب على اساس أنه أمر عدواني، وعلي أن اتعامل مع الحجاب بناء على هذا الفهم، إن فهمي أنا للآخر هو الأساس لا فهم الآخر لنفسه؛ فهو منطق دوغمائي لا يمكن القبول به، حيت تأتي المرأة المحجبة لتقول: لقد التزمت بحجابي بما هو فرض أوجبه الله تعالى علي، لأعبّر من خلاله عن احتشامي وعن ستري لمفاتني الظاهرية، كي يكون ذلك دافعاً للعناية بجمال الباطن، وجمال العقل، ولأوجد نوعاً من التوازن بين جمال الظاهر وجمال الباطن، جمال الجسد وجمال القلب، وإن حجابي يسهم في السلامة الاجتماعية، ولا أريد منه إلا أن يكون رسالة للرحمة والسلام والخير؛ لكن يأتي الآخر ليقول لها: إن حجابك - بحسب ما أفهمه أنا - هو اعتداء علي وعلى قناعاتي، وهذا ما يبرر لي أن أواجه هذا الحجاب؛ فإذن ببساطة أنت لا كما تعبر عن نفسك وإنما أنت كما أنا افهمك، وبالتالي سوف أتعامل معك بناء على فهمي هذا، حتى لو كنت أنت لا تقبل به؛

فهل يبقى بذلك منطق مشترك بين بني البشر، وهل يبقى من مؤاخذة على كثير من الحركات المتطرفة التي تتعامل مع الآخر بحسب ما تراه هي في الآخر، لا بحسب ما يراه في نفسه، أو يعبر به عنها؟

هل يمكن القبول بهذه المعادلة البسيطة؛ إن الحجاب رمز ديني والرمز الديني ممنوع، فيجب منع الحجاب، أم نقول إن الحجاب وإن كان واجباً في الإسلام، لكنه في رمزيته دعوة إلى العفة والحشمة؛ وأما منع الرموز الدينية فهل يشمل ما لو كانت تدخل في الحرية الشخصية وحرية الاعتقاد؟ وعلي أي أساس يبررالمنع؟ وهل من المقبول أن يمنع السلوك الديني إذا كان يخالف رأي فئة أو مجتمع ما؛ لقد كان يجب أن تكون الدولة الفرنسية أرقى في ادائها الاجتماعي مما أقدمت عليه، وأن تثبت أن لثقافة الاختلاف محل في فكرها وفعلها الاجتماعي.

إن السلطة الفرنسية وبفعلتها هذه، تثبت أن صدرها يضيق بالآخر، وأن ذلك المجتمع ليس مستعداً للعيش مع الآخر الديني والفكري كما هو، بل عليه أن يتنازل عن جزء من هويته الثقافية والدينية حتي يصبح مقبولاً في ذلك المجتمع، بل قد يعني ذلك الموقف من الحجاب - في دلالاته - العمل على طمس الهوية الإسلامية لشريحة كبيرة من المسلمين تعيش في المجتمع الفرنسي.

إن هذا الموقف الفرنسي يشجع على نبذ الآخر، ويوجه ضربة إلى ثقافة العيش المشترك، ويدعو في دلالاته إلى عدم القبول بالآخر كما هو عليه، بل هو دعوة إلى التطرف، والقمع، وثقافة الإنعزال، وهو ما يضعف ثقافة الحوار والتفاهم والتواصل الإيجابي بين مختلف الثقافات والديانات والحضارات، وبين مختلف الشعوب.

إن الأقليات المسلمة في الغرب سوف تشعر أنها مستهدفة في دينها وهويتها الثقافية، وهو ما قد يدفعها إلى الإنعزال عن مجتمعها المحيط، وإلى الإنزواء من أجل حماية نفسها، مع ما لذلك من آثار سلبية على المجتمع برمته.

ثم إن هذا الإجراء من شأنه أن يفتح شهية الكثير من الحركات العنصرية والمتطرفة في الغرب للعمل على قمع الأقليات المسلمة في هويتها ودينها وثقافتها، وهو ما يؤدي إلى تغذية الروح العنصرية والتطرف في الغرب، بل ربما يدفع ذلك العديد من الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي للقيام بردات فعل انفعالية، كرد على ما يتعرض له المسلمون في الغرب وهو ما يؤدي إلى الإضرار بثقافة العيش المشترك في الغرب والشرق.

بل ربما تجد العديد من الحركات المتطرفة، فيما يحصل في الغرب دليلاً إضافياً على أن اللغة الوحيدة التي تجدي مع الغرب هي لغة المواجهة لا الحوار، وما يمكن أن يؤدي إليه ذلك من مضاعفات غير محمودة العواقب.

إن على السلطة الفرنسية أن تتعقل دلالات مثل هذا القرار، ومضاعفاته، وآثاره السلبية على حوار الحضارات والتواصل الإيجابي ما بين الغرب والعالم الإسلامي، وعلى ثقافة العيش المشترك والقبول بالآخر، بل ربما يؤدي ذلك إلى إيجاد أكثر من تصدع في المجتمع الفرنسي نفسه، على أن ذلك القرار سوف يدفع مسلمي الغرب إلى التمسك أكثر بهويتهم الدينية ورموزها، لأنهم مهما كانوا مستعدين للاندماج في المجتمع الغربي، فليسوا مستعدين أن يكون ذلك على حساب أصالتهم وهويتهم الإسلامية.